التعريب: هدف و وسيلة

د. أحمد ذياب (*)

من الغريب جدا أن تجد بيننا– وخاصة من أولئك الذين شقوا في العلوم طريقا– من يدافع عن لغة أجنبية ولا يدافع عن لغته، بينما اللغة أداة اقتصادية ذات جدوى كبرى. إن اللغة محور أساسي للشخصية، إنها جزء لا يتجزأ من هوية الإنسان.

هذا المقال صدر بجريدة " لوموند" باللغة الفرنسية عنوانه " دفاعا عن اللغة الفرنسية".

لموضوع التعريب محاور عديدة ومداخل كثيرة، وجوانب لا تحصى، حتى لكأنك في فضاء واسع مفتوح لا باب له، وكأن كل شيء يمكن أن يكون تعريبا، ولكننا في أمر تعريب العلوم الطبية، قمنا بمحاولة تصنيف الأبواب التي أمكن لنا العمل والمساهمة فيها.

محاور الحوار:

1) التدريس باللغة العربية.
2) إعداد المحاضرات والبحوث العلمية باللغة العربية.
3) إعداد المراجع باللغة العربية.
4) المساهمة في الهيئات والمنظمات التي بيدها القرار، خاصة القرار السياسي.
5) محاورة المريض بالعربية

المحور الأول: التدريس بالعربية

في سبتمبر 1989: طلبت إلى الوزير السماح لي بالتدريس باللغة العربية وفق مكتوب مرفق بتقرير عن تدني مستوى الطالب باللغة الفرنسية، لكنني لم أتلق أية إجابة.

في سبتمبر 1985: أعملت الوزير بقراري تدريس علم التشريح باللغة العربية. وطلبت إليه إن كان لديه أي مانع في تدريس هاته المادة باللغة الوطنية.

لم أتلق أية إجابة، فدرست باللغة العربية

(*)أستاذ بكلية الطب/ تونس- وعضو بالجمعية الدولية للجراحة وتقويم الأعضاء

وتفرض علينا الموضوعية التحاور مع الغائبين عن القرار. ولكننا نتكلم أغلب الأحيان عن الطلبة وهم غياب، ونقرر للمرضى دون التشاور معهم.

كيف يمكن التحاور معهم؟

- بالحوار المباشر
- وباستفتاء الطلبة والمرضى.

أنا شخصيا: استفتيت الطلبة مرتين عندما كنت ادرّس بالعربية، ووضعت على ذمة المرضى الذين أعالجهم استجوابا حول اللغة التي يرغبون أن أتحاور بها معهم.

هل أقبل الطلبة على الدرس باللغة العربية؟

طبعا بنسبة 97%

وقد بقي آنذاك درس مواز باللغة الفرنسية، أولا لمن ظنوا أنهم فوجئوا بالتحول المفاجئ!! والقرار الشخصي!! وثانيا لوجود طلبة من بلاد شقيقة وصديقة لا يحسنون العربية.

درّست علم التشريح باللغة العربية لثلاث سنوات متتالية: (85-86)، (86-87)، 87-88). ثم أجهضت التجربة.

وللتذكير، وحتى تأخذ هذه المحاولة إطارها الزمكاني فقد كنت درَّسْت علم التشريح لعامين متتاليين باللغة الفرنسية في جامعة باريس، فكان أمرا عاديا.

ثم درست نفس المادة باللغة الفرنسية في جامعة صفاقس لفترة دامت ست عشرة سنة وهي فترة تزخر بالطرائف والنوادر، ودرّست نفس المادة باللغة العربية، وقد كان ذلك أمرا بديهيا جدا.

ولكن هل نحن أمة تقبل بديهيات الأمور؟

إن فشل أية محاولة تقوم بها لا يعني أنها كانت مبنية على مبادئ خاطئة. وأريد أن أسرد عليكم ملاحظة طالب ذكرها في أول استفتاء قمت به لدى الطلبة، لقد قال:

في بداية السنة الدراسية حذرني بعض الأساتذة من هذا الشذوذ خوفا على المستقبل.

ولم يكن بوسعي أن أسأله أي مستقبل يقصد؟

مستقبلي أنا أم مستقبله هو؟

المحور الثاني: إعداد المحاضرات والبحوث العلمية

إن أعظم الناس عندنا لا يولد في العظمة وإنما يصنعها بنفسه-

كان الأطباء العرب يكتبون بالعربية ويؤلفون بها ويخترعون. ومن بينهم الطبيب الزهراوي الذي قال: اسلخ الجلد برفق حتى تصل الشريان، ثم تخلصه من الصفاقات التي تحته من كل جانب، فإذا كان الشريان رقيقا، فاكوه....

فإن كان الشريان عظيما فإنك تربطه من مكانين متباعدين بخيط متين و ليكن من إبريسم، أي الحرير، لكي لا يسرع إليه العفن قبل إلتئام الجرح.

ولكن من يكتب التاريخ؟؟

لقد أتى على هذه المقولة ستة قرون لنرى أمبرواز براى، ذاك الجراح الفرنسي من القرن السادس عشر، يقول بالحرف الواحد:

وهكذا هداني الله إلى ربط الشريان بعد عملية بتر دون أن أشاهد قط من فعل ذلك من قبل، ولا سمعت أن أحدا قد قام بذلك قط.

التاريخ تكتبه اليد العليا

لا بد من القيام بالمحاضرات باللغة العربية دون خجل أو خوف مثلما كان الأطباء العرب يفعلون.

عندما نحقن مريضا في قرصه القطني نقول له:"قرصا قطنيا" لأنه لا يفقه كلمة " ديسك" أو أية كلمة من الكلمات الأجنبية المستعملة.

النكد : SINISTROSE

عندما عرضت على طالب تقديم أطروحته باللغة العربية وكان ذلك سنة 1987، ولأول مرة في هاته الكلية، كان أن طلب إلي مساعدته في ترجمة بعض الألفاظ، ومن الأمثلة على ذلك كلمة، نكد: SINISTR0SE.

قسم الطبيب:

خلال السنوات الأولى من عمر كليتنا كان الحديث عن التعريب أمرا لا يتجاوز أضغاث الأحلام، بل قل إن علاقات الكلية الخارجية، وتعويلها على الإطار التدريسي الفرنسي يمنع كل محاولة للتعريب، ولكن ما الذي كان يمنع الطالب عند تخرجه من القسم باللغة العربية بما أن هذا القسم يربطه بالأساس مع محيطه العربي؟ وتحوّل الأمر بتحوّل العمادة إلى من هم أقرب إلى النقاش والقبول بالرأي المخالف ولو جزئيا، فعُوّض قسم بقراط باللغة الفرنسية إلى اختيار بين الفرنسية والعربية.

المحور الثالث: إعداد المراجع

أثناء مرحلة التدريس بالعربية أعددت 14 كتابا في علم التشريح باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية حتى يتمكن الطالب من تلقي درسه في التشريح باللغة العربية وفهم الدروس الأخرى التي بقيت ولا تزال على حالها تدرس باللغة الأجنبية.

المعجم الطبي: فرنسي عربي: معجم حاولت فيه لمّ شتات بعض الألفاظ الطبية الفرنسية بمقابلاتها العربية.

الإيدز...AIDS, SIDA: هل أصيبت اللغة العربية بداء فقدان المناعة لكي يستورد شرقي البلاد لفظة (الإيدز) وغربيّها (السيدا). مصطلح اللامناعة اقترحناه في ماي 1992.

وبهذا المعجم، اقترحت بعض الإضافات المصطلحية، ومنها:

الأبخس: ORTEIL

أصبع اليد ينتمي إلى اليد

فماذا عن أصبع القدم؟

اللغات الأجنبية ميزت أصبع القدم عن أصبع اليد نظرا لاختلاف الوظائف فاخترت لفظة أبخس لأصبع القدم، وجمعها أباخس

يوملي: NYCTHEMERAL

هذا اللفظ يحتوي على ما انتمى إلى الليل والنهار، والمصطلح قد يكون يومي ليلي أو ليلي نهاري، أو يوملي أو نهالي.

الفك. الفقم: MANDIBULE. MAXILLAIRE

الفك العلوي ثابت

والفك السفلي متحرك

فماذا عن الشريان العلوي الفكي السفلي والوريد السفلي الفكي العلوي، ولأن الفَقَم في العربية يمثل بروز الفك العلوي سمينا هذا الأخير الفقم وتركنا الفك للفك السفلي.

بعض طلبتنا لم يأخذوا الأمر مسلّما فناقشنا ذلك.

طبي. طبابي: MEDICAL. PARAMEDICAL

ما ينتمي إلى الطب أو ما يخص الطبيب يسمى طبيا، أما ما يهمّ الممرض ومدلك الأعضاء والصيدلي والمحلل، فهو إلى حد الآن يسمى شبه طبي وهي عبارة لم ترق لي أبدا.

فما معنى شبه طبي؟ قد يكون ذلك نعتا لمن يصنع صنيعا شبيها بالطب، ولهذا اقترحت كلمة طبابي– وهي موجودة في لسان العرب.

آلام الظهر:

هو كتاب كتبته مساعدة للمريض باللغتين العربية والفرنسية.

في هذا الكتاب، استعملت عدة مصطلحات.

ظهري، ظهراني: DORSAL

ما ينتمي للظهر، تلك المنطقة بين العنق والإليتين يسمى ظهريا لكن ما ينتمي إلى ظهر اليد أو ظهر العضلة نسميه في علم التشريح وبعد اتفاق اللجنة الثلاثية ظهرانيا وهي عبارة قريبة مما نستعمله في اللجهة التونسية " ظهراوي".

القطان الشائع: LOMBALGIE COMMUNE

القليل منا، ممن تخطى عقبة المنفلوطي (الأربعين) لا يشعر بهذه الآلام الظهرية، آلام العصر، ونظرا لشيوعها سميتها " القطان الشائع".

قطان: LUMBAGO

ألم ظهري حاد، قد يتسبب في عرق النسا، والكلمة عربية.

أدوات الحضارة:

كتاب آخر من مؤلفاتي

عندما حاولت التعرف على أدوات العرب وما صنعوه منذ ألف سنة إسترعى إنتباهي كثرة المصطلحات التي إستعملوها.

فهل يكون ثراء هاته اللغة عيبها؟

المبضع: المشرط. المخدع. الشفرة. النشيب... وغيرها كثير، كلمات كلها تدل على نفس الأداة.

المقدح: يستعمل في جراحة العين. لا وجود لكلمة مقدح بالإنجليزية والفرنسية تترجم كلمة المقدح العربية.

المخدع : لا وجود لكلمة بالإنجيلزية والفرنسية تترجم كلمة المخدع العربية.

المحور الرابع : المساهمة في اللجان والمنظمات

اللجنة الثلاثية مثلا مختصة في علم التشريح ومنبثقة عن منظمة الصحة العالمية.

1) محمد توفيق الرخاوي (مصري)
2) محمد توفيق الخياط (سوري)
3) أحمد ذياب (تونسي)

هذه اللجنة تقدمت بعدة مقترحات، ومنها:

الكليّة : NEPHROS

الكلوة الجنينية: HALLUX سميناها الكليّة.

الإبخاس : إبهام القدم

المحور الخامس: محاورة المريض بلغته

قد يكون ابن الجزار أول من كتب وصفة للمريض،ولا نظنه قدمها بغير العربية، واليوم أحاول شخصيا، لا كبعض الزملاء في البلاد العربية، أن أفي ببعض ما وعدت به المريض عندما أقسمت أنني سوف أتفانى في خدمته، أي أن أقدم له وصفة وشهادة طبية بلغة المريض، أي العربية.

ثم إنني كنت قلت أنني استفتيت المرضى فطرحت بعض الأسئلة.

هل تريد أن يكون ما يكتبه إليك الطبيب باللغة العربية؟

- نسبة 55% من الإجابات باللغة العربية الفصحى

- نسبة 35% من الإجابات باللغة الفرنسية
- –نسبة 10% من الإجابات لاتهمهم اللغة المستعملة

ما هي أفضل لغة يتكلم إليك بها الطبيب؟

- نسبة 19% من الإجابات باللغة الفصحى
- نسبة 6 % من الإجابات باللهجة التونسية

وأغلب الإجابات ذكرت أن المهم هو أن يتكلم الطبيب لغة يفهمها المريض.

هذه هي إذا المحاور التي حام حولها اندفاعنا لأمر التعريب ويحوم اليوم استعدادنا في البعض منها بالنظر إلى انقطاع عملية التدريس باللغة الوطنية.

وأملنا وطيد بأن تعود المياه إلى مجاريها والأمور إلى طبيعتها وتبعث لغتنا العربية من رمادها.

فهرس